العبيد والإماء في مكة قبل الإسلام
"دراسة عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية خلال القرنيين ٥_٦م"

أ. م. د. سلطان أحمد الغامدي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الملخص

لا نعرف بالدقة متى وُجد العبيد والإماء في مكة قبل الإسلام، لكن الباحث يعتقد أنها كانت موجودة منذ بداية استقرار قبيلة جرهم اليمنية مع هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، حيث أصبحت مكة محطة تجارية على الطريق من جنوب غرب الجزيرة العربية إلى الشمال.

كانت مكة سوقاً منتظمة لبيع العبيد والإماء من مختلف الأجناس، وقد حرص سكانها على جلبهم بأعداد كبيرة للاعتماد عليهم في كثير من الأعمال، وقد وُجد العبيد والإماء بنوعيه الأسود الذي كان يُسخر للخدمة في الأعمال الشاقة للقوة الجسمانية، والأبيض الذي كان أغلى ثمناً من الآخر.

لم يكن للعبيد أو الإماء أية حقوق في مجتمع مكة القديم، على الرغم من كثرة اعدادهم، وخدماتهم التي قدموها للمجتمع.

حرص أهل مكة على جلب الإماء للمجتمع لعدة أسباب منها الزواج أو لممارسة البغاء أو الغناء واللهو والرقص أو الخدمة في المنازل أو غيرها.

نتج عن وجود العبيد والإماء في المجتمع المكي دخول بعض المصطلحات إلى اللغة العربية، واتقن بعضهم مهن يدوية، بل وأجاد صناعتها، كما كانت لبعضهم خبرات علمية، استفاد منها القرشيون.

Male and Female Slaves in Makkah in pre-Islamic era, "a study about their social and economic status during the 5th and 6th centuries"

Dr. Sultan Ahmad Al-Ghamdi

Umm Al-Qura University
College of Sharia and Islamic Studies

Abstract

We do not know exactly when slaves and female slaves were found in Makkah before Islam, but the researcher believes that they were present since the beginning of the settlement of the tribe of Jurum Al-Yamania. With the settlement of Hajar and Ismael, Makkah became a commercial station where convoys going from south-west to north

Makkah was a market for the sale of slaves and female slaves of various races, where the people of Makkah keen to bring them in large numbers to rely on them in many works. In Makkah there were black slaves who were enduring hard working because of their physical strength. White slaves were more expensive than black slaves

The slaves had no rights in the community of Makkah before Islam. The people of Makkah were keen to bring slaves the community of Makkah for several reasons, including marriage, prostitution, singing, dancing, entertainment, domestic service, and so on

The presence of slaves and female slaves in the pre-Islamic community resulted in the appearance of certain terms that were included into the Arabic language as well as the mastery of some manual crafts. The slaves had scientific experiences that benefited the people of Quraysh.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، احمده حمداً طيباً مباركاً فيه، يملأ أرجاء السموات والأرض، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صل الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين وبعد..

تقع مدينة مكة في قلب منطقة الحجاز، ذات الأهمية الاقتصادية والدينية في شبه الجزيرة العربية، فقد كانت الحجاز جسراً يربط سوريا وفلسطين وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة وبلاد الهند، وفي مكة تلاقت جميع الأديان الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية، وفيها ظهر الإسلام فيما بعد.

وتكمن أهمية مكة كذلك في أهمية الكعبة، التي كانت مقصد الحجاج من انحاء شتى لجزيرة العرب قبل الإسلام، وعدم تعرضها للغزو على امتداد تاريخها، لأن الله تعالى كفلها بحمايته ورعايته وأمنه، استجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى "رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" (سورة إبراهيم آية رقم ٣٥).

وكان نزول نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل من العوامل المهمة في تاريخ مكة، كما اشتهر أمر الكعبة بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى أبا الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام بدعوة الناس للحج، قال تعالى: " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ" (سورة الحج آية رقم ٢٧).

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قبيلة قريش على أيام قصي بن كلاب، مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية تُشد إليه الرحال، وتشخص إليه الأبصار، إذ كانت ترعى الأشهر الحرام بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك، كما كان لمركزها الممتاز بين تجار العرب أنها كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبة الجزيرة العربية.

امتاز المجتمع القرشي بعملهم في التجارة، واحتكارهم لعدد من السلع، وهو ما أدى إلى أن يكونوا من أغنى القبائل في الجزيرة العربية، لتتوفر لهم كل سبل الراحة والحياة السعيدة، كما حرصوا على جلب العبيد والإماء بكثرة، لتسخيرهم في كل الأعمال من أجل راحتهم وخدمتهم، ومن هنا جاءت رغبة الباحث في دراسة الأوضاع الاجتماعية لهذه الطبقة، وعن الخدمات التي كانوا يقومون بها، والمصادر التي حرص عليها أهل قريش لجلبهم بتلك الكثرة، وعن أدوارهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية عند قريش قبل الإسلام.

كان لتلك الطبقة دور كبير في تطور الاقتصاد القرشي، إذ اعتمدوا عليهم في تربية المواشي، وفي تجهيز وحماية القوافل التجارية، وفي زراعة البساتين وجني الثمار، وفي الخدمة

داخل المنازل، وفي الغناء واللهو، كما أدخل هؤلاء العبيد العديد من العادات والتقاليد التي تربوا عليها في أوطانهم إلى المجتمع القرشي، فضلاً عن تعرف قريش على دياناتهم وتأثر بعضهم بها، وهنا تكمن أهمية الموضوع التي سيتحدث عنها الباحث بالتفصيل بإذن الله.

تمهيد:

لا نعرف بالدقة متى وجد العبيد والإماء في مكة قبل الإسلام ، ولكن الباحث يعتقد أنها كانت موجودة منذ بداية استقرار قبيلة جرهم اليمنية مع هاجر زوج النبي إبراهيم وابنها إسماعيل عليهم السلام حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، حيث ارتبط وجود العبيد والإماء دائما بحياة الاستيطان والاستقرار[١]، كما أن مكة كانت تقع على طريق القوافل التجارية من جنوب غرب الجزيرة العربية إلى الشمال وهو المعروف بطريق البخور، ولعل ذلك شجع على وجود العبيد والإماء في مكة لتقديم العون والمساعدة لهذه القوافل التجارية ، حيث كانت مكة محطة لهذه القوافل التي تضرب خيامها وتقيم فيها سوقاً تجارية كبرى ، فهي منطقة التقاء الشماليين بالجنوبين[٢]، وبما أن مكة كانت تقع على هذا الطريق الحيوي فيعتقد الباحث أن وجود العبيد والإماء لم يكن بتلك الكثرة ، و ربما كان وجودهم مرتبطاً بقدوم القوافل التجارية ، التي ما تلبث أن تغادر مكة الى مقصدها ، وربما يغادر معها العبيد والإماء ، ليظل الوضع كذلك حتى ظهرت قبيلة قريش بقيادة قصي بن كلاب حوالي القرن الخامس الميلادي ، لتتحول مكة من محطة تقع على الطريق التجاري الى أغنى القبائل في الجزيرة العربية ، ليزداد معها وجود العبيد والإماء .

العبيد عند قريش قبل الإسلام:

كانت مكة سوقا منتظمة لبيع العبيد والإماء من مختلف الاجناس، وكان أكثرهم من الغرباء الأجانب سواء من سواحل شرق افريقيا وبالذات الحبشة أو من بلاد فارس والروم[٣]، حيث كان للمجتمع المكي تجارة واسعة، فضلاً عن زراعات ومراعي ومن ثم فقد كانوا يحتاجون أكثر من غيرهم الى الأيادي العاملة، خاصة أن طبقة الاشراف منهم قد ترفعوا عن ممارسة العمل بأنفسهم، نظراً لما نالوه من حظ وافر في الثروة، وما أصابوه من حياة الترف المختلفة، من شراب وسمر وغناء، ولهذا فقد أقبل أثرياء مكة على جلب الرقيق بأنواعه[٤].

اعتادت قريش على استيراد العبيد والإماء الإفريقيين من اليمن ، وجلبهم بأعداد كبيرة لاستغلالهم في الأعمال الشاقة كالري والزراعة والرعي وحراسة القوافل التجارية ، وتشغيلهم في خدمة المنازل وغيرها[٥]، كما كانت قريش تستخدم هؤلاء العبيد في جيشها النظامي للدفاع عن مكة من أي محاولة اعتداء عليها[٦]، حيث قوة بنيتهم الجسمانية وخبرتهم القتالية ساعدتهم على ذلك ، كما أن بعض هؤلاء العبيد قد عملوا في البساتين التي كان يملكها أثرياء مكة في الطائف، فالعاص بن وائل السهمي كانت له أموال ومزارع في قرية "وهط" على ثلاثة أميال من "وج"، ومات وهو في شعب من شعابها، كما كان للعباس بن عبد المطلب أرض فيها مزروعة بالكروم، وكذلك لسعيد بن العاص بن أمية وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وغيرهم[٧]، كما عملوا في بيع

المواشي بأنواعها، حيث كانت مكة سوقا نشطة لها[٨]، وربما عملوا كذلك في خدمة الكعبة والأصنام حولها، من حيث تنظيفها وحراستها من أي عمل يسيئ لها ، وكانوا يعرفون في مكة بسودان مكة، وقد كثر عددهم حتى أصبحت مكة وكأنها مستعمرة افريقية من كثرة أعداد العبيد الأفارقة، وكانوا يتحدثون العربية ولكن بلكنة أعجمية[٩]، وقد بلغ من كثرتهم أن هند بنت عبد المطلب أعتقت أربعين عبداً في يوم واحد، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بن عبد الشمس مائة عبداً كذلك في يوم واحد، وهو ما يدل على كثرة عددهم في مكة قبل الإسلام ، واعتماد المجتمع المكي عليهم في كثير من الأعمال[١٠]، كما كان لعبد الله بن أبي ربيعة عدداً كثيراً من العبيد الأحباش في مكة[١١] ، وكان بنو مخزوم من قريش يملكون عدداً كبيراً أيضاً من العبيد السود ، يستخدمونهم في مختلف الأعمال وفي الحروب وخاصةً تلك التي خاضتها ضد يثرب[١٢]، كما كان بني تيم من قريش يملكون عدداً كبيراً من العبيد ومنهم عبد الله بن جدعان ، والذي كان تاجراً ونخاساً في الوقت ذاته[١٣] ، ولعل من أسباب كثرتهم كما يعتقد الباحث هو أنهم أقل قيمة من غيرهم .

أما العبيد والإماء أصحاب البشرة البيضاء فقد اعتادوا جلبهم من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، حيث كانتا تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى الفريق المغلوب بالأسواق[١٤]، وقد اعتاد أهل مكة على استخدامهم في إدارة الأعمال التجارية، وتولي الحرف اليدوية ، وأعمال البناء والتجارة التي تتطلب خبرة ومهارة وفن، فهم ينتمون الى مدن متحضرة كبلاد الشام وبلاد الرافدين [١٥]، كما جلبوا هذا النوع من الرقيق أيضاً من الهند وفارس ومصر وغيرها[١٦]، وكان العبد والأمة صاحب البشرة البيضاء أغلى ثمناً من العبد أو الأمة صاحب البشرة السمراء كما ذكرنا سابقاً [١٧].

أما العبيد من أصل عربي وهم قلة فكان مصدره الصراع بن القبائل ، حيث تأسر القبيلة بعض أفراد القبيلة الأخرى في غارة من غاراتها ، وتبيعهم في أسواق الجزيرة العربية بالمال ، وقد عرفت تجارة العبيد باسم "النخاسة"[١٨] ، أو ربما يكون مصدره ما يعرف برقيق الدين ، وهم من الأحرار العرب الذين كانوا يستعبدون عند عجزهم عن دفع الدين ، وفوائده الفاحشة للمربين[١٩]، وذلك بسبب إعالة أسرة كبيرة أو عقب كوارث طبيعية أو مرض أو غزو مسلح ، فيسقط الفرد نهائياً في الرق ويتحول إلى عبد ، أو ربما يكون مصدره الفقر ففي بعض المجتمعات نجد أن سلطة الأب المطلقة على أبنائه تخوله بيعهم أرقاء بسبب الفقر والحاجة ، ومن حقه أن يبيع نفسه أيضاً ، والشعوب القديمة أجازت بيع النفس ، واعتبر ذلك مألوفاً ، كما أن القمار من مصادر الرق ، فأبو لهب والعاص بن هشام تقامرا على أن من يفوز يسترق صاحبه ، فغلب أبو لهب

العاص فاسترقه واسترعاه إبله[٢٠] ، كما أن زواج الأرقاء يعتبر من مصادر الرق ، فتمتع السيد بأمته وما يؤدي ذلك إلى انجاب أطفال ، فالقانون لا يحمله عبأ الاعتراف بأبوته ، فالأولاد من الأمة عبيد يستطيع أن يسخرهم إما للزراعة وإما لرعي المواشي والأعمال الشاقة التي يأنف من مزاولتها الأسياد ، وهذه الحالة ساعدت على تكاثر الأرقاء عند قريش قبل الإسلام، لأنه قد يكون للسيد عدة إماء فيترتب على ذلك عدداً لا بأس به من الأولاد الأرقاء ، هذا بالإضافة إلى أن الأولاد من زواج العبدة من العبد يعتبرون عبيد عند سيدهم الذي يعمل عنده الأبوين[٢١]، ويعتبر الخطف والقرصنة واللصوص من الموارد للرق ، فقد كان تجار الرقيق يقومون بخطف الأطفال لبيعهم كما حدث لزيد بن حارثة مولى الرسول صل الله عليه وسلم.

كان السادة ملاك العبيد والإماء يتوارثونهم عن آبائهم وأجدادهم[٢٢]، كما كانت لهم السلطة المطلقة عليهم ، لدرجة انهم كانوا يتحكمون في اعتقاداتهم وأفكارهم، وكانوا يعذبونهم أشد العذاب في حال مخالفتهم لهم في الدين والعقيدة ، ومن حق السيد أن يبيع العبد أو الأمة ومن حقه كذلك أن يهبه لغيرة [٢٣]،ولم يكن للعبد أو الأمة الحق في امتلاك المال على الإطلاق، أو الحق في تزويج نفسه إلا برضاء سيده وعلى أن يتزوج أمة من جنسه[٢٤]، وليس لهم اية حقوق مادية أو معنوية ولا حقوق اجتماعية ولا سياسية [٢٥]، كما أنهم يعملون بقوت يومهم مقابل الاعمال العديدة الملقاة على عواتقهم[٢٦]، ولم يكن يحق للعبيد أو الإماء ان يدفنوا في مقابر أسيادهم، وربما كانوا يدفنون خارج مكة [٢٧]، وأما عن معاملة العبيد والإماء داخل الأسرة فقد لقي البعض منهم معاملة حسنة من أفراد الأسرة ، وربما نظر إلى عبوديته نظرة مؤقتة ، كأنها عبودية عمل، فقد تعدى عملهم المنزل إلى الاشتغال بالإنتاج ، وقد تكفل صاحب العبد بحمايته ومنهم من نال معاملة قاسية[٢٨]، أما عن المنازل التي كان يقطنها العبيد والإماء في المجتمع القرشي فكانوا يسكنون مع أسيادهم وربما في دور خاص بهم[٢٩]، ولكن الباحث لا يستبعد أن يكون بعضهم له دور مجاورة لسيده.

لم يكن للعبد أو الأمة أملاً في الخلاص من هذا الوضع إلا بوسيلة العتق من قبل سيده ، وكان ذلك يتم في مناسبات متعددة ، كعمل عظيم يقوم به لسيده ، أو لأحد أفراد أسرته ، أو أن يقوم بدور بطولي في الحروب والمعارك ، أو إخبار سيده بخبر مفرح ، أو بمناسبة زواج سيده أو أحد أفراد أسرته ، أو أن يقوم العبد أو الأمة بتحرير نفسه بالمال ، أي يشتري حريته مقابل مبلغ من المال لسيده ويسمى العبد المحرر لنفسه "المكاتب" ، لأن العبد يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ، وفي بعض الأحيان يعتق العبد بعد موت سيده ، ويسمى العبد حينئذ "المدبر"[٣٠]، ودبرت العبد اذا علقت عتقه بموتك ودبر العبد أي اعتقه بعد الموت[٣١].

اعتاد أهل مكة البطاح المعروفون بالتجارة على الإكثار من جلب العبيد والاماء ، بخلاف أهل مكة الظواهر الفقراء الذين اعتادوا في حياتهم على الغزو والرعي [٣٢]، حيث كانوا يتطلعون إلى المزيد من الرفاهية ، وإلى من يتحمل عنهم أكبر قدر من مشقة الأعمال اليومية الرتيبة كما ذكرنا سابقا ، وكل ما يأنف الانسان الحر من ممارسته ، لذلك زاد عدد العبيد والإماء في الحواضر وقل عند أهل البادية[٣٣]، فقد زاد عددهم في بيوت أغنياء مكة بنوعية ذكورا وأناثاً وبلونية الاسود والابيض[٣٤]، ومن هؤلاء الاثرياء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد الرسول الله صل الله عليه وسلم وابنيه العباس وعبد العزى ، وكذلك حكيم بن حزام وعبد الله بن جدعان وصفوان بن أمية وابو سفيان بن حرب و عبدالله بن أبي ربيعة و غيرهم[٣٥]، وأمتلك أهل مكة عبيدهم عن طريق الشراء غالباً ، وقلة منهم عن طريق الأسر والسبي ، نظرا لقلة اشتراكهم في الغزو والغارات [٣٦]، وأشهر سوق للعبيد والاماء في مكة قبل الاسلام كان عند جبل أبي قبيس قبل جبل فاضح أي بالقرب من الحرم ، وكان هذا السوق خصيصا لهذه التجارة [٣٧].

الإماء عند قريش قبل الإسلام:

أما الإماء فقد حرص بعض المجتمع المكي على شرائهن للزواج بهن ، خاصة اذا كنا من أصحاب البشرة البيضاء كعمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي الذي تزوج من رومية وكذلك عم الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب الذي تزوج رومية وأنجب منها ابنه كثير وغيرهم[٣٨]، كما وجد في المجتمع المكي من تزوج من الأمة السوداء مثل بني سهم اذ كانت امهم قاسمة أمة سوداء[٣٩]،كذلك نضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي كانت أمه حبشية نصرانية يقال لها "صهال"، ونفيل بن عبد العزى العدوي وأمه ايضا تدعى "صهال" ، وعمر بن ربيعة بن حبيب من بني عامر بن لؤي وأمه ايضا تدعى "صهال" ، والخطاب بن نفيل العدوي وأمه اسمها حية، والحارث بن عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي وأمه تدعى سبحاء وقيل فرسان ، وعثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى وصفوان بن امية بن خلف الجمحي وهشام بن عقبة بن أبي معيط وعمير بن جدعان التميمي وعمرو بن العاص ومالك بن عبيد الله بن عثمان الاموي وابو مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان التميمي وصفوان بن امية الجمحي وغيرهم[٤٠].

والمرأة المسترقة ملتصقة بالرق أكثر من الرجل، فتسمية أم الولد تلازمها حتى بعد العتق ، وصفة السرية تلازمها حتى ولو كانت سرية لخليفة، وصفة الجارية ترافقها حتى ولو بلغت أعلى مراتب العلم والثقافة[٤١].

كانت العرب تطلق على أبناء الأمة البيضاء من آباء عرب لفظه "هجين" ، وأما من أبناء الإماء السود فيطلقون عليهم أسم أغربة العرب[٤٢]، تشبيهاً لهم بذلك الطائر المشؤوم في لونه الأسود ، ونسبوهم في أكثر الحالات إلى أمهاتهم ، كما كانوا يعيرون كل من كانت امه غير عربية [٤٣] ، فقد عُير الشاعر كعب بن مالك بن عبد الله بن الزبعري السهمي أنه هجين في قوله:

سألت بك أبن الزبعري # فلم أنباك في القوم هجينا [٤٤]

ونتيجة لهذا الوضع المزري التحق بعض أبناء الإماء بحركة الصعاليك الثورية، احتجاجاً على التمييز والحياة المهينة التي كان يعيشها الأرقاء ومن بينهم السود، في سبيل النضال من أجل الحرية والمساواة والحقوق والكرامة الإنسانية[٤٥].

كان بعض الإماء يتم جلبهن إلى المجتمع المكي لممارسة البغاء ، وهن أصحاب الرايات من أجل الربح وكسب المال وكانت تسمى بيوتهن "المواخير" ، وكان القرشيون يأكلون من أموال البغاء ، فقد كان لعبد الله بن جدعان عدد منهن يمارسن البغاء ولما يحملن ويلدن يبيع اولادهن أو يبقى منهم من يشاء ، كما كان للسائب بن ابي السائب المخزومي وسهيل بن عمر وغيرهم عدد من الإماءات يمارسن البغاء في مكة [٤٦]، وقد ذكر بعض المؤرخين أسمائهن وهن أم مهزول جارية السائب بن ابي السائب وأم عليط جارية صفوان بن أمية وحنة القبطية جارية العاص بن وائل السهمي ومرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار وحلالة جارية سهيل بن عمرو وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي وسريفة جارية زمعة بن الاسود وفرسة جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤي وقرينه جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر وغيرهم .

كما كان يتم جلب الاماءات الى مكة من أجل الرقص والغناء واللهو والتسلية في الحانات أو المنازل [٤٧]، وفي الحفلات والأعراس وفي مناسبات الأعياد الدينية كمراسم الحج وتقديم القرابين ، فقد كانوا يتغنون على إيقاع نقر الدفوف وأصوات المصفقات[٤٨]، وربما كانوا يرافقون القافلة التجارية الخارجة من مكة من أجل الغناء والتسلية واللهو ، وقد كان عبد الله بن جدعان وعبد الله بن خطل ومقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم والمولى الرومي نسطاس وغيرهم كانت دارهم مقصدا لسادة قريش من أجل الاستماع لهؤلاء المغنيات [٤٩]، وأشهر هؤلاء القينات ظبية والرباب قينتا عبد الله بن جدعان وقريبة وفرتنى قينتا عبد الله بن خطل ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب وعزة مولاة الاسود بن عبدالمطلب[٥٠]،وأسماء وعثمة وقتل وبوهة وهن قيان عبد الله بن مقيس بن عدي[٥١]، والنابغة بنت عبد الله وهي أم

عمرو بن العاص وقد اشتهرت بالغناء وأخذ الأجر عليه[٥٢]، وقد كنا هؤلاء جميعا يتغنين باللغة العربية، فضلاً عن لغة أهل بلادهن الفارسية واليونانية ، وشمل غنائِهِنَّ أغراضاً شتى كالمديح والهجاء والرثاء والحماسة وغيرها[٥٣]. كما كان غنائِهِنَّ خاصاً مقتصراً على سيدها أو عاماً لجميع رواد الحانة[٥٤]، أما رزقها الحاصل لها من الغناء فإما ان يكون كاملاً لها نظير اسعاد سيدها والحاضرون معه، أو يكون جزءاً لها وجزء لسيدها الذي يستغل عملها من أجل التربح[٥٥].

كما كان يتم جلب الاماءات للخدمة في البيوت كإعداد الطعام ونحوه ، وكذلك لجمع الحطب وحلب النوق والاعتناء بسيدات قريش من تلبيس وتزيين وتمشيط وعناية بالشعر وتفلية الرأس وغيرها[٥٦]، كما كانت تقوم الأمة بمساعدة وخدمة النساء القرشيات المشتركات في المعارك[٥٧].

نتائج وجود العبيد والإماء في مجتمع قريش قبل الإسلام:

نتج عن وجود العبيد والإماء في المجتمع القرشي قبل الإسلام دخول بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية الى اللغة العربية ، خاصة المتعلقة بالصناعات والأعمال التي يزدريها العرب[٥٨]، كما أجاد بعضهم القراءة والكتابة وأتقن البعض الآخر المهن الحرفية اليدوية كالحدادة والنجارة والحلاقة والحجامة[٥٩]، فقد كانوا يصنعون الأدوات الزراعية والأسلحة من سيوف ودروع ورماح ونبال وسكاكين وغيرها، ومنهم على سبيل المثال خباب بن الأرت الذي كان يعمل في صناعة السيوف[٦٠]، كما عملوا في صناعة الغزل وحياكة النسيج وصناعة الاثاث المنزلي، الذي يصنع من الصوف والأوبار والشعر والأرائك والنمارق والزرابي والفرش وبطائنها[٦١]. وفي النجارة كانوا يستخدمون بعض اصناف الشجر في صنع أبواب البيوت ونوافذها وسقوفها وإقامة حضائر الانعام وغيرها[٦٢]، كما عملوا في صناعة الأواني الفخارية كالقدور والجفاف والصحاف والأباريق والكيزان والأكواب وغيرها [٦٣]، وربما عملوا في حرف أخرى كصناعة الحلي والمجوهرات والصباغة والعطور والصناعات الغذائية والجلدية وغيرها ، ولا يستبعد الباحث أن يكون بعض العبيد والإماء كانت لديهم خبرة في مجالات علمية ، استفاد منها القرشيون فتعلموها منهم، خصوصاً أولئك الذين كانوا يسكنون سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين ، ومن هذه العلوم الفلك والحساب والطب والبيطرة وطرز البناء وغيرها ، كما أشتهر الكثير من العبيد وأبناء الإماء بالفروسية[٦٤]، وكان بعضهم يدين باليهودية كعبد الدار بن جبر الفلاح اليهودي الذي اعتنق الإسلام بعد ذلك[٦٥]، وبالنصرانية كزيد بن حارثة الذي تبناه الرسول صلى الله عليه وسلم[٦٦]، وبالمجوسية كسلمان الفارسي وغيره ، وقد كانت قريش تعظم النار، بل وتعقد تحالفاتها بالقرب منها ولعل هذه من الشعائر المجوسية[٦٧]. ولكن تأثيرهم الديني على المجتمع كان ضعيفا الى حد

ما كما تذكر المصادر، على الرغم من كثرة أعدادهم وخدماتهم للمجتمع في شتى المجالات[٦٨]، ولكن الباحث لا يستبعد أن بعض المجتمع القرشي قد تأثر بديانات هؤلاء العبيد وممارسة بعض طقوسهم الدينية ، كما أن بعض العبيد والإماء بعد عتقهم لم يغادروا مكة بل ظلوا مواليا لأسيادهم ، وشاركوا معهم في الحروب وفي التجارة والرعي والحرف وغيرها حتى أصبحوا وكأنهم من المجتمع القرشي[٦٩] ، كما نتج عن وجود العبيد و الإماء في المجتمع القرشي أن تأثر الغناء العربي بألوان الغناء في البلاد الأخرى مثل الغناء الفارسي والرومي والحبشي ، فقد أُدخلت مصطلحات من تلك البلدان في الغناء العربي ، و رافق ذلك دخول الألحان مع اللحن العربي ، كما دخلت آلات موسيقية من تلك البلدان إلى المجتمع القرشي كاستعمال الطنبور (القنين) من الحبشة ، ثم دخل العود وغيرها.

وقبل الختام أود أن أُشير إلى معنى كلمة العبد والأمة وأصل هذه التسمية ، فالأمة والعبد تعني الشخص الواحد وجمعها إماء وعبيد ومن لفظة العبد اشتقت العبودية[٧٠]، وهم من فقدوا حريتهم يباعون ويشترون ويصبحون من أملاك أسيادهم [٧١]، ويطلق على العبد لفظة عبدم ولفظة عبدن أي العبد وتشمل العبيد معها اختلفت ألوان بشرتهم [٧٢]، والعبد يطلق عليه لفظة قطن وقطنتم والقطين إي الإماء أو الخدم والأتباع [٧٣]، كما يطلق عليه تسمية صبي ونبت وفتى وفتاة وخادم وخادمة [٧٤]، ووصيف ووصيفة وجارية [٧٥]، ومع ظهور عادة الخصاء ظهر اسم خصي وهو العبد الذي يعمل في دار الحريم [٧٦] ، كما يطلق على العبد لفظة قن بمعنى عبد أما قنت وقينت وقينه فتؤدي معنى عبده [٧٧]، كما عرف العبد باسم رب ملكن أو ربب ملكن أو ربيب الملوك أو ربيب الملك بمعنى عبد الملك أو عبيد الملك [٧٨]، وفي القرآن الكريم وردت كلمة رقبه[٧٩]، وعبارة ما ملكت ايمانكم [٨٠]، فهي تشير الى العبد والأمة ، وقد يطلق على العبد والأمة لفظ رق بالكسر وتعني الملك والعبودية ايضا [٨١]، وقد سمي العبد رقيقا لانهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون ، والرق في اللغة هو الضعف ومنه رقة القلب [٨٢]، وبعد تأسيس الرسول صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية في المدينة وخوضه الغزوات والسرايا ، صارت عبارة اسير تعني من وقع عليه العبودية [٨٣].

إن أصل تسمية عبد وأمة تنتهي الى اصول سامية قديمة فالمرأة العبدة عند البابليين تسمى أمتوم ، وأما العبد فيسمى وردوم – ابدوم [٨٤] ، وعند السومريين وردت تسمية عبد ولكنها بمعنى المرأة الآتية من بعيد أي الأسيرة لانهم عرفوا استرقاق المرأة أما الرجل فيذبح [٨٥]، ووردت لفظة العبد والعبيد في الكتابات العربية الجنوبية (المسند) بصيغة آدم وأدوم ت وغيرها [٨٦] ، كما

وردت لفظة عبد وأمة في الإنجيل وذلك في رسالة القديس بولس إلى اهل اغلاطية [٨٧] ، كما وردت كذلك في العهد القديم [٨٨].

الخاتمة:

وفي الختام أود أن أشير إلى بعض النتائج منها :

- وجود العبيد والإماء في المجتمع المكي قبل الإسلام يعود إلى بداية استقرار قبيلة جرهم اليمنية مع السيدة هاجر زوج النبي إبراهيم وابنهما إسماعيل عليهم السلام حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد .
- ارتبط وجود العبيد والإماء دائماً بحياة الاستيطان والاستقرار، وبما أن مكة كانت تقع على طريق القوافل التجارية من جنوب غرب الجزيرة العربية إلى الشمال وهو المعروف بطريق البخور، شجع ذلك على وجود العبيد والإماء في مكة لتقديم العون والمساعدة لهذه القوافل التجارية ، حيث كانت مكة محطة لهذه القوافل التي تضرب خيامها وتقيم فيها سوقاً تجارية كبرى ، فهي منطقة التقاء الشمالين بالجنوبين.
- لم يكن وجود العبيد والإماء في بداية نشأة مكة بتلك الكثرة، وإنما كان وجودهم مرتبط بالقوافل التي تمر بها ، فإذا غادرت القافلة غادروا معها ، حتى سيطرة قبيلة قريش على حكم مكة بقيادة قصي بن كلاب حوالي القرن الخامس الميلادي، لتتحول مكة لقبلة للتجار وطلاب الثراء، ومعها تزايد وجود العبيد والإماء.
- كانت مكة سوقاً منتظمة لبيع العبيد والإماء من مختلف الاجناس، وقد حرص سكانها على الإكثار منهم وجلبهم لتسخيرهم في الخدمة.
- اعتادت قريش على استيراد العبيد والإماء الأفارقة من اليمن، وجلبهم بأعداد كبيرة لاستغلالهم في الأعمال الشاقة كالري والزراعة والرعي وحراسة القوافل التجارية، وتشغيلهم في خدمة المنازل وغيرها ، كما كانت قريش تستخدم هؤلاء العبيد في جيشها النظامي للدفاع عن مكة من أي محاولة اعتداء عليها، حيث قوة بنيتهم الجسمانية وخبرتهم القتالية ساعدتهم على ذلك.
- اعتاد أهل مكة على جلب العبيد والإماء أصحاب البشرة البيضاء من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، حيث كانتا تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى الفريق المغلوب بالأسواق، كما كانوا يجلبونهم من بلاد الهند وفارس ومصر وغيرها، وقد اعتاد أهل مكة على استخدامهم في إدارة الأعمال التجارية، وتولي الحرف اليدوية، وأعمال البناء والتجارة التي تتطلب خبرة ومهارة وفن، فهم ينتمون الى مدن متحضرة.
- كان العبيد والإماء أصحاب البشرة السوداء أكثر عدداً من أصحاب البشرة البيضاء في مكة، لقوتهم الجسمانية، ولقلة تكاليفهم.

- كان العبيد من أصل عربي قليل في مجتمع مكة قبل الإسلام، وكان مصدره الصراع بن القبائل، حيث تأسر القبيلة بعض أفراد القبيلة الأخرى في غارة من غاراتها، وتبيعهم في أسواق الجزيرة العربية بالمال.
- كان ملاك العبيد والإماء في مكة يتوارثونهم عن آبائهم وأجدادهم، ولم تكن لهم أية حقوق مطلقة، لدرجة انهم كانوا يتحكمون في اعتقاداتهم وأفكارهم، وكانوا يعذبونهم أشد العذاب في حال مخالفتهم لهم في الدين والعقيدة، ومن حق السيد أن يبيع العبيد او الأمة ومن حقه كذلك أن يهبه لغيرة .
- لم يكن للعبد أو الأمة في مجتمع مكة قبل الإسلام أملاً في الخلاص من هذا الوضع إلا بوسيلة العتق من قبل سيده، وكان ذلك يتم في مناسبات متعددة.
- اعتاد أهل مكة البطاح المعروفون بالتجارة على الإكثار من جلب العبيد والاماء، بخلاف أهل مكة الظواهر الفقراء الذين اعتادوا في حياتهم على الغزو والرعي.
- حرص بعض المجتمع المكي قبل الإسلام على شراء الإماء للزواج بهن، خاصة اذا كنا من أصحاب البشرة، أو لممارسة البغاء، أو للتسلية واللهو والرقص والغناء، أو للخدمة في المنازل.

نتج عن وجود العبيد والإماء في المجتمع القرشي قبل الإسلام دخول بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية الى اللغة العربية ، خاصة المتعلقة بالصناعات والأعمال التي يزدريها العرب ، كما أجاد بعضهم القراءة والكتابة وأتقن البعض الآخر المهن الحرفية اليدوية كالحدادة والنجارة والحلاقة والحجامة ، وكان لبعضهم خبرة في مجالات علمية ، استفاد منها القرشيون فتعلموها منهم ، خصوصاً أولئك الذين كانوا يسكنون سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين ، ومن هذه العلوم الفلك والحساب والطب والبيطرة وطرز البناء وغيرها ، كما أشتهر الكثير من العبيد وأبناء الإماء بالفروسية .

هوامش البحث:

ملاحظة: سأذكر هنا معلومات كاملة عن المصادر والمراجع عند ذكرها لأول مرة مما يغنينا عن اعداد جريدة للمصادر والمراجع.

---

(1) Encyaopedia Britannica , Vol 21 , Chicago , London , William Benton publicsher , 1768,p628

(٢) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بيروت ،١٩٨٥ م ، ص٤٨-٤٩- ٥٠ ؛ راجع فكتور سحاب : ايلاف قريش ، بيروت ، ١٩٩٢ م ، ص٩٦.

(٣) أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص ١٥١- ١٥٢ .

(٤) محمد بيومي مهران : الحضارة العربية القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ،١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٥) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ، ص٥٠.

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٤، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣ ،١٩٨٠م، ص٣٢_٣٤.

(٧) أحمد يحيى البلاذري: أنساب الأشراف ، تحقيق حميد الله ، ج١، دار المعارف ،مصر ، ١٩٥٩م،ص٥٧وص١٤٢

(٨) أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص ٢١٩.

(٩) عبده بدوي: السود والحضارة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص٦٥.

(١٠) أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص٢٢٨_٢٢٩.

(١١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني : الأغاني ، ج١ ، دار الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٢٧م ، ص٧٥.

(١٢) برهان الدين دلو : جزيرة العرب قبل الإسلام _التاريخ الاقتصادي _الاجتماعي_الثقافي_السياسي ، دار الفارابي ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٤م ، ص١٨٣.

(١٣) المرجع السابق : ص١٨٣.

(١٤) المرجع السابق : ص ٤٨-٥٠.

(١٥) المرجع السابق : ص١٨٤.

(١٦) ناصر الدين الاسد :القيان والفناء في العصر الجاهلي ،١٩٦٩م ، ص٣٤.

(١٧) برهان الدين دلو: المرجع السابق، ص١٨٤.

(١٨) عواطف اديب سلامة: قريش قبل الاسلام- دورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ص٦٤

(١٩) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص١٨٢.

(٢٠) أبو الفرج الأصفهاني : المرجع السابق ، ص١٠٠.

(٢١) فاطمة قدورة : الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الاسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م ، ص ٣٧.

(٢٢) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، حيدر آباد ، مج ١ ، ط١ ،١٣٢٥هـ،ص٣٩٥.

(٢٣)خضير عباس الجميلي : قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الاسلام ،بغداد ،٢٠٠٢م،ص٨٣.

(٢٤) أحمد الشريف /المرجع السابق ،ص٣٨.

(٢٥) عمر كحالة : مباحث اجتماعية في عالمي العرب والاسلام ،١٩٧٤م ، دمشق ، ص٧.

(٢٦) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج٤،ص١١٨.

(٢٧) فتحي الحداد : "العبيد والإماء في نصوص شبة الجزيرة العربية قبل الاسلام" ، ابجديات ، مكتبة الاسكندرية ، عدد ١ ، ٢٠٠٦م ، ص٥٦-٦٠.

(٢٨) فتحي الحداد: المرجع السابق ،ص٥٦-٦٠.

(٢٩) عواطف أديب سلامة :المرجع السابق،ص٦٤-٦٥.

(٣٠) أحمد الشريف: المرجع السابق ،ص٣٨-٣٩.

(٣١) ابن منظور : لسان العرب ، مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٥٦م ، ص٢٧٣.

(٣٢) فاروق أحمد سليم :شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام ،دمشق،١٩٩٧م،ص٢٥.

(٣٣) جواد علي : المرجع السابق ، ص٥٥٥-٥٦٧ ، و ص٥٧٠.

(٣٤) عمر كحالة : المرجع السابق ، ص٦.

(٣٥) محمد عمر الشاهين: تاريخ العرب قبل الاسلام، دار الفكر، عمان ،ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، ص٣٥٦-٣٥٨.

(٣٦) طه حسين : اسلاميات ، القاهرة ،ط١، ١٩٦٧م،ص١٨.

(٣٧) محمد بن عبد الله الازرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، تحقيق رشدي ملحس ، ج٢ ، دار الاندلس ،ص٢٨٢حاشية ٢.

(٣٨) أبو الحسن علي بن محمد بن الاثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ، مج ٤و٥، دار المعرفة ، بيروت ص١١٤وص١٥١.

(٣٩) حمد بن صراي: "العناصر البشرية غير العربية في مكة قبل الاسلام وأدوارها الدينية والاقتصادية والاجتماعية" ، مجلة جامعة الملك سعود ، مجلد١٩، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م،ص١٣٣.

(٤٠) ابو الفرج الاصفهاني: الاغاني،ج١، ص٨١ ؛ راجع جواد علي :المفضل في تاريخ العرب ج٤،ص١١٩.

(٤١) فاطمة قدورة الشامي : الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الاسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م ، ص١٢٤.

(٤٢) محمد الخطيب: المجتمع العربي القديم (العصر الجاهلي)،دار علاء الدين،دمشق،ط٢، ٢٠٠٨م،ص٧١.

(٤٣) حمد بن صراي : المرجع السابق ،ص١٣٣.

(٤٤) حسان بن ثابت: الديوان ،تحقيق سيد حنفي حسنين ،القاهرة، ١٩٧٤م،ص٩٧وص١٠٨-١٠٩

(٤٥) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص١٩٩_٢٠٠.

(٤٦) ابن قتيبة الدينوري: المعارف ، تحقيق ثروة عكاشة ، ط٤ ، ١٩٨١م،ص٥٧٦ ؛ راجع أحمد بن محمد الثعلبي : الكشف والبيان (التفسير) ، دراسة وتحقيق ابو محمد بن عاشور ،مراجعة وتدقيق نظير الساعدي ، بيروت، ٢٠٠٢م،ج٧،ص٦٥-٦٦.

(٤٧) ناصر الدين الأسد: القيان والغناء ، ص١٥-٢٣وص٧٩-٨٤.

(٤٨) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص٥١١.

(٤٩) ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ، ص ١٥-٢٣.

(٥٠) المرجع السابق : ص٨٦ و ص ٥١-٢٥.

(٥١) المرجع السابق : ص٢٧١ ؛ حاشية ٣

(٥٢) المرجع السابق : ص ٩١.

(٥٣) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص٥٢٠.

(٥٤) ناصر الدين الاسد : المرجع السابق ، ص٤٢.

(٥٥) أحمد محمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ،ط٢، ١٩٦٣م ، ص٥٠٦.

(٥٦) ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧.

(٥٧) عواطف أديب سلامة : المرجع السابق ، ص ٦٦١.

(٥٨) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، ج٤ ، ص١٢٠.

(٥٩) جواد علي : المرجع السابق، ج٦ ، ص٥٨٩ ؛ راجع أحمد الشريف : المرجع السابق ، ص٣٨.

(٦٠) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص١٠٩.

(٦١) المرجع السابق : ص١١٢.

(٦٢) المرجع السابق : ص١٢٣.

(٦٣) المرجع السابق : ص١٢٦.

(٦٤) أحمد محمد الحوفي : المرجع السابق ، ص٤٩٦.

(٦٥) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م ، ص٩٤ .

(66) . Trimi NGHAM , J . SPENCER , Christianity among the Arabs in _ Is _ Iamic Times , Ist published 1979 , London , p260 .

(٦٧) أحمد محمد الحوفي : المرجع السابق ، ص ٥١-٥٢.

(٦٨) عواطف أديب سلامة : المرجع السابق ، ص٦٩.

(٦٩) برهان الدين دلو : المرجع السابق ، ص١٨٥-١٨٦.

(٧٠) فاطمة الشامي : المرجع السابق ، ص٢١.

(٧١) جواد مطر الحمد : الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن خلال الألف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي ٥٣٥م جامعة عدن ، دار الثقافة العربية ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص١٩٨ .

(٧٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، ج ٨ ، ص ٤٥.

(٧٣) ابن منظور : لسان العرب ، ج١٣ ، ص٣٤٣.

(٧٤) ابن جرير الطبري : تفسير الطبري ، ج٨ ، در المعارف ، القاهرة ، ص١٨٨.

(٧٥) فاطمة الشامي : المرجع السابق ، ص٢٢.

(٧٦) أبو علي المحسن بن علي التنوخي: نشوء المحاضرة وأخبار المذاكرة ، ج٥٥ ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ ، ص٤٨.

(٧٧)فاطمة الشامي : المرجع السابق ، ص٢٣ .

(٧٨) ابن منظور : لسان العرب ، ج١٥ ، ص٢٠٢.

(٧٩) سورة النساء : آية ٤ ؛ سورة المائدة :آية ٥ ؛ سورة المجادلة : آية ٥٨ .

(٨٠) سورة النور : آية ٢٤ ؛ سورة الروم آية ٣٠ ؛ سورة الأحزاب : آية ٣٣

(٨١) ابن منظور : لسان العرب ، ص١٢٣ وما بعدها .

(٨٢) ابن منظور : السابق ، ج١١ ، ص٤١٥.

(83) Encucl opedie del , islam , tome I (A-B) p232.

(84) Joygyet , pierre , Les premieres civilization , p445.

(٨٥) فاطمة الشامي : المرجع السابق ، ص٢٢.

(٨٦) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٨، ص٤٣-٤٤.

(٨٧) الكتاب المقدس : العهد الجديد ، مطبعة المرسلين ، بيروت ، ١٩٣٧م ، ص٢٣٢.

(٨٨) العهد القديم : الآباء الدومنكيين ، ج١، الموصل ، ١٨٧٤م ، ص١١٧.